تبعد زغرتا ٩ كيلو مترات عن مدينة طرابلس · ويصل تعداد سكانها الى ٣٠ ألفا بينهم ٦ آلاف منتخب وبضعة الاف من المغتربين · وبلدة زغرتا عاصمة لقضاء يضم ٥٢ قرية صغيرة تابعة لها اجتماعيا وسياسيا بكل معنى الكلمة · وكانت زغرتا حتى أواخر الحرب العالمية الثانية مركزا للحرف وسوقا تجارية للمنطقة كلها · ولكن هذا المركز الذي شهد أوج ازدهاره في فترة وجود « الحنفاء » في لبنان ، سقط نهائيا مع رحيل القوات الاجنبية، وبالاحرى فقد انتقل الى مدينة طرابلس ، الى حد ان مقومات بقاء زغرتا صارت مرتبطة بجارتها الساحلية الكبيرة ·

صراعات العائلات وبروز الزعامة الفرنجية

أبرز ما في زغرتا من الناحية السياسية ـ الاجتماعية عائلاتها الخمس الكبرى : كرم ، فرنجية ، معوض ، دويهي ، ومكاري · وتتقاسم هذه العائلات النفوذ السياسي وتتخاصم وتتحالف تبعا للظرُوف · ان العائلة المهيمنة حاليا هي بدون شك آل فرنجية · ولكن زعامة آل فرنجية جديدة نسبيا · فطوال عشرات السنين ، ومنذ أيام يوسف بك كرم الذي حارب المتصرف داود باشا ، كانت عائلة كرم الاقطاعية مهيمنة على زغرتا نفسها ، بل وعلى اقطاع منطقتي الزاوية وبشري ، ولكن زعامة آل كرم « الاقطاعية » بدأت تتصدع منذ دخول الانتداب الفرنسي ، وفي الثلاثينات بالاخص ، أمام زعامة قبلان فرنجية التي لقيت دعم المغتربين « الرأسماليين » من جهة ، و « الفلاحين » المتضررين من آل كرم من جهة أخرى ، اضافة الى العائلات الكبرى المنافسة لآل كرم · ومن الحوادث المشهورة أبان صراع العائلتين الكبيرتين · ان اهالي زغرتا استنكروا اقدام السلطة الفرنسية ، في سنة ١٩٢٩ ، على تعيين وديع طربيه المحسوب على آل كرم نائبا في البرلمان ، فتوجهوا الى طرابلس حيث احتلوا السراي الحكومي واشتبكوا مع الجنود السنغاليين · وكانت النتيجة انتصارا لقبلان فرنجية الذي أصدر الفرنسيون مرسوما بتعيينه عضوا في البرلمـــان !

ونضالات ديمقراطية محدودة

ولكن الصراعات السياسية لم تكن دائما محصورة ضمن اطار العائلات · فمع انهيار موقع زغرتا التجاري والحرفي في أواخر الحرب العالمية الثانية ، نشأت في البلدة حركة قوامها الحرفيون عرفت باسم « حزب التحرر والعدالة » وكان نشاطها معاديا للاقطـاع ولنفوذ آل فرنجية · غير ان اقطاع منطقة الزاوية عاد فاستوعب تلك الحركة ، وانشقت عنها فيما بعد حركة اخرى عرفت بـ « الحزب الديمقراطي» · وحافظت هذه الاخيرة على صفاء الحركة الام غير انها ظلت ضعيفة ومحدودة التأثير ·

زغرتـــا أقل طائفية

ونقطة أخرى تستلفت النظر : فالتركيبة العشائرية للمجتمع الزغرتاوي لعبت دورا واضحا في ابقاء المشاعر الطائفية (أي المعادية للطوائف الاخرى) ضعيفة ، وذلك على عكس معظم المناطق المسيحية الاخرى · وغالبا ما كانت التحالفات السياسية للاسر « الحاكمة » في زغرتا تتخطى حدود القضاء لتشمل مناطق الضنيه وطرابلس وعكار ذات الغالبية الاسلامية · ثم ان موقع زغرتا من أحداث ١٩٥٨ حينما وقفت ضد كميل شمعون ومشاريعه الاستعمارية ، وتأثير زعيمهـا

وَفد مِن الأهَالي يقَابل فرنجيّه وَيبلغه رَفض الاشتِراك في القتَال

الوطني حميد فرنجية ، حالا بدورهما دون تبلور الطائفية على نحو حاد · والمعروف ان حميد فرنجية كان ينتمي الى الحزب الدستوري ، وانه لعب دورا بارزا في مفاوضات جلاء الجيوش الفرنسية عن لبنان، ثم انتخب أمينا عاما « للجبهة الوطنية » المعارضة لحكم شمعون في ١٩٥٧ ، وكانت تربطه بالرئيس عبد الناصر علاقة وثيقة ·

كانت فترة أواسط الخمسينات فترة انفجار الصراعات العائلية بصورة دمويه · وكان بين اسباب ترزي الوضع وقوف كميل شمعون ، رئيس الجمهورية آنذاك ، الى جانب الاب سمعان الدويهي ، زعيم عائله دويهي ، وتخليه عن آل كرم المنهارين · وشهدت البلدة العديد من الجرائم واعمال الثأر كان أبرزها « مجزرة مزيارة » في ١٩٥٧ التي ذهب ضحيتها ٢٧قتيلا كانوا يشيعون احد آل كرم داخل كنيسه البلدة · وكان أبرز ابطال المجزرة الاب سمعان الدويهي وخصمه (حليفه اليوم) سليمان فرنجية ·

ولكن الصراع العائلي ترافق مع صراع سياسي عام بين الشمعونيين والعروبيين · فانحاز زعماء زغرتا وجمهورها كل الى جهة · فتحالف الاب سمعان الدويهي مع القوميين السوريين في الكورة ، في حين وقف حميد فرنجية مع العروبيين ، ومعه قسم كبير من زغرتا · وقد لعبت زغرتا ، ابان أحداث ١٩٥٨ ، دورا بارزا في دعم طرابلس عسكريا وفي أمدادها بالاسلحة والذخائر ·

سليمان يتولى « الزعامة » ·· والرئاسة

بعد مجزرة مزيارة اضطر سليمان فرنجية للفرار الى سوريا ، حيث لقي الترحيب والاكرام ، وحيث أقام علاقة وطيدة مع عبد الحميد السراج · وكانت أغلب اقامته في منطقة اللاذقية وضافيتا ·· وفي تلك الفترة بنى صداقات مع مسؤولين سوريين اعطت ثمارها بعد ٢٠ سنة !

وبعد انتهاء حكم شمعون عاد سليمان فرنجية الى لبنان ليتولى زعامة آل فرنجية وزغرتا · فقد اصيب اخوه حميد بانفجار في الدماغ جعله يبتعد عن النشاط السياسي والاجتماعي · وكما يحدث في اعقاب الخضات الاجتماعية العنيفة فقد نشأت في زغرتا حينئذ « حركة الشباب الزغرتاوي » التي ضمت شبابا من مختلف العائلات يجمعهم معارضتهم للعلاقات العائلية وعداؤهم للاقطاع السياسي · وقد ترافق نشوء الحركة مع انفتاح زغرتا على التعليم (وكانت ذلك الحين متخلفة جدا من هذه الناحية) ، ومع معاناة الاقطاع من أزمة عدم قدرته على تأمين الاعمال والحاجات لجمهوره · وبالطبع اتفقت كلمة كبار العائلات على مكافحة الحركة الجديدة ، ووقف بوجهها بصورة خاصة الاب سمعان الدويهـي الذي كان يطبـع منشورات ضدها ، أو يستغل منبـر الكنيسة لمهاجمتها ·

ولكن نقطه التحول الحقيقيه في زغرتا ، بعد ١٩٥٨ ، كانت بدون شك انتخاب سليمان فرنجيه ـ بأكثريه صوت واحـد ـ لرئاسة الجمهوريه · وهكذا اصبح « زعيم العشيرة » الزغرتاوي زعيما للدولة !

زغرتا في الحرب الاهلية

في بداية احداث ١٩٧٥ كان يبدو ان زغرتا خارج الصراع الدائر · فعلى عكس المناطق المسيحية الاخرى لم تشهد المنطقة عمليات تدريب وتجهيز عسكري على نطاق كثيف · ولكن الوضع بدأ في التأزم مـع نشاطات آل كرم التي اتسمت بطابع طائفي استفزازي · وقد تحالف هؤلاء مع حزب الكتائب والشعبة الثانية في الجيش وركبوا مركب المزايدات الطائفية املا في استعادة زعامتهم المفقودة · ومن الامور ذات المغزى في تلك الفترة ان حزب الكتائب عقد مؤتمره العام فـي منطقة الارز المجاورة ، وذلك للمرة الاولى في تاريخه · وعقب انفضاض المؤتمر سار الكتائبيون وآل كرم في عراضة مسلحة في شوارع اهدن وحتى القصر الجمهوري · وابدى سليمان فرنجية ، حينذاك ، امتعاضه من العراضة الكتائبية ، غير انه بدأ يشعر بضرورة مسايرة موجة العنف الطائفية لصيانة زعامته من المزايدات ! خاصة وان الدعاية الكتائبية كانت تركز حينئذ على مهاجمة موارنة الشمال ·· المتقاعسين !

المجزرة الحاسمـــة

وبدأ الوضع يتوتر بالتدريج حتى حادثة داريا المفجعة · فقد أوقف حاجز تابع لطوني فرنجية (ابن الرئيس) بضعة مواطنين مسلمين من طرابلس على حاجز في مدينة شكا واقتادهم في سيارة باص الى زغرتا · وفي زغرتا اتفق على اعادة هؤلاء المخطوفين ولكن شخصا يدعى نبيل محسن فرنجية لحق بالسيارة وهي عائدة من زغرتا وقتل الـ ١٣ راكبا الذين كانت تقلهم · وكان احد أسباب الجريمة تحريض بعض الاطراف للقاتل للانتقام لاخيه الذي كان قتل في اليوم نفسه · ومما يلفت النظر ان المسلحين الذين كانوا يتولون مرافقة السيارة بطلب من طوني فرنجية لم يجابهوا القاتل وانما تركوا المخطوفين العزل لمصيرهـــم ·

استنكرت عائلات زغرتا جميعا حادثة داريا · وأصدر حميد فرنجية بيانا تضمن اسفه واستنكاره · ولكن ذلك لم يحل دون ردود الفعل المضادة · فقد اقدمت فئات من اهالي طرابلس على تدمير معظـم البيوت والمحلات التي يملكها زغرتاويون في مدينة طرابلس · وقام بعض عمليات التدمير اشخاص معروفون بصلتهم بالشعبة الثانية في الجيش · ثم ما لبث القتال ان اندلع بين طرابلس والضنيه من جهة، وزغرتا من جهة أخرى · وهكذا ، ومع حادثة داريا وعواقبها ، دخلت زغرتا مرحلة الحرب الحامية على نطاق واسع مع جيرانها · وفي هذه الاجواء طرح شعار « الدفاع عن زغرتا » في وجه المهاجمين ، مما جعل اغلبية الاهالي تلتحق بالجبهة التي يقودها طوني فرنجية ·

حقيقة « جيش التحرير الزغرتاوي »

هنا يجدر بنا التوقف قليلا لالقاء نظرة على التشكيل العسكري الزغرتاوي وقياداته ·

الملاحظة الاولى التي يسجلها العالمون بأوضاع زغرتا هي انـه ليس هنالك ما يسمى « جيش التحرير الزغرتاوي » في الواقـع · والواقع ان الجبهة الزغرتاوية تقوم على مجموعات من المسلحين الذين تقدمهم كل عائلة من العائلات الخمس الكبرى · ولا يمتلك المقاتلون الزغرتاويون الانضباط والتنظيم الاداري الذي يمتاز به مقاتلو الكتائب مثلا · ثم ان اسلحة المقاتلين ليست ملكا للبلد كله ، وانما هي ملـك للعائلات كل على حدة · والسلاح المشترك الاساسي هو المدفعية التي يملك معظمها آل فرنجية · ويملك آل فرنجية حوالي ٣٠ قطعة مدفعية بينها مدافع ١٢٠ ملم ، و ١٥٥ و ١٦٠ ملم ، ومدافع ب ـ ١٠ المضادة للدروع ، ومدافع رشاشة مضادة للطائرات ·

من يتولى القيادة العسكرية ؟ الواقع ان ضباط الجيـش اللبناني هم الذين يتولون المهمة : العقيد حليم كيروز (وهـو من بلدة بشري المجاورة) ، وقائد الحرس الجمهوري ، النقيب شالوحي (من بلدة بعشتار في الكورة) ، والملازم أول لوسيان مكاري ، والملازم أول مارون معوض ، والعقيد خوري (وجميعهم من زغرتا) ·

وترتبط هذه القيادة العسكرية بطوني فرنجية مباشرة · ويعاونه محليا المحامي جوزف العريجي والاب يوسف يمين الملقب « ابو المردة »· والى جانب هؤلاء تضم القيادة « السياسية » رينه اسعـد معوض (غير النائب رينه معوض) وفوزي الخوري الدويهي ، وهكتـور المكاري ، واحد آل كرم ، بوصفهم مندوبين عن عائلاتهم ·

من مرياطة الى الكرملية وهجوم جيش التحرير

تحت شعار « الدفاع عن زغرتا » ، وكذلك « بفضل » الاعمـال الطائفية المشبوهة التي حدثت في طرابلس ـ وكان ضحيتها مسيحيون وزغرتاويون ، أمكن لسليمان فرنجية وابنه طوني ان يحشدا شبـاب زغرتا للمعركة · وقد ظل طابع القتال الزغرتاوي دفاعيا معظم الوقت، وعكس ما يتصور الكثيرون · والعملية الهجومية الوحيدة التـي قاموا بها كانت ضد قرية مرياطة التي يملكها رشيد كرامي · وكان ذلـك الهجوم نوعا من تعبير عن نزاعات « البك » الزغرتاوي و « البك » الطرابلسي ··

ان أبرز المعارك التي خاضها الزغرتاويون حتى الان كانت معركة كعبوش ـ مرياطة حيث منوا بخسائر واضحة · ثم المعركة مـع جيش التحرير الفلسطيني ، التي جرت في ٢١ كانون الثاني مـن السنة الحالية · والمعروف ان هجوم جيش التحرير حدث في مرحلة اتسمت بتوتر العلاقات بين سوريا وكل من فرنجية وشمعون وقـد تعرض جيش التحرير لخسارة كبيرة ، بعد أن إجتاح خط الدفـاع الزغرتاوي الاول بسبب عدم وجود أدلاء يعرفون المنطقة معه · وكان لتلك النكسة التي تعرض لها جيش التحرير أثر بالغ في رفع معنويات قوات طوني فرنجية الى أقصى حد · ويذكر هنا ان جماعة « طوني » حملوا جثث المقاتلين الفلسطينيين وأخذوا يطوفون بهـم في قرى المنطقـــة ··

وكان لمعركة « الكرمليه » أثر سلبي بالغ على أوضـاع القوات اليمينية الزغرتاويه · فحتى تلك المعركة كان الزغرتاويون في وضع مرتاح عسكريا · وكانوا موجودين في منطقه « القبه » في طرابلس ، الى جانب فرض هيبتهم على منطقه الكورة المجاورة · لكن سقوط الكرمليه نقل المعركه الى زغرتا نفسها · ودير الكرمليه عبارة عن بناء حصين لا تخترقه المدفعية · وهو يشرف على شوارع زغرتا نفسها · ومن هنا شعر الزغرتاويون بخطورة سقوطه ، ولو ان خسائرهم البشريه كانت محدودة ·